التُرَب والمدافن العائليّة في تونس من القرن 17 إلى القرن 19: ملامح تطور ممارسة جنائزية نخبويّة

ملخص

لم تكن عادة إنشاء الترب والمدافن العائليّة أو الخاصّة تقليدا غريبا عن السلوك الجنائزي في تونس وفي بقيّة البلدان المغاربيّة قبل حلول الاتراك العثمانيين. ومع ذلك، نلاحظ أن الكثير من التحولات قد طرأت على هذا التقليد منذ أواخر القرن السادس عشر. فلقد انتشرت عادة انشاء الترب على نطاق واسع في أوساط النخب الحاكمة بإيالة تونس وهي تعبر على رهاناتها وطبيعة التحوّلات الطارئة على العلاقات السياسيّة والاجتماعية في الإيالة إلى حدود أواخر القرن التاسع عشر.. كما أصبح لهذا التقليد منذ ذلك التاريخ خصوصيات جديدة لا يمكن حصرها في المجالين المعماري والحضري.

أ. مبروك جباهي

الأرشيف الوطني التونسي

تونس

Résumé

La tradition d'ériger une *tourba* ou une sépulture privée existait au Maghreb avant l'avènement des Ottomans. Elle a beaucoup évolué depuis la fin du XVI^{ème} siècle, en prenant de nouvelles formes, qui reflètent l'évolution de l'architecture, ainsi que l'ensemble des mutations ayant affecté les rapports politiques et sociaux dans la Régence jusqu'à la fin du XIX^{ème} siècle.

تمهيد المفارقة التي يوردها مارسيل موص (Marcel MAUSS) أن الإنسان هو الحيوان الذي يقوم بإنجاز أشياء معقولة انطلاقا من مبادئ غير معقولة. كما إنه ينطلق من مبادئ ذات مغزى لينتهي إلى أشياء مفرغة من المعاني. ومع ذلك، فإن هذه المبادئ الخالية من المعنى وهذا السلوك غير المعقول يشكلان على الأرجح نقطة البدء [المؤذنة بقيام] مؤسسات عظيمة[1]. وتنطبق هذه الملاحظة إلى حد كبير على مجمل الموروث الجنائزي الخاص بكل مجتمع، وخاصة ما يتعلق منه بالمدفن. والأهم من ذلك، هو أن حصول هذه الحركة الفارقة في التاريخ البشري، والتي جعلت من المدفن مؤسّسة، إنما نعزوها إلى النخب.

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر 2013.

وتقترح هذه الورقة العودة إلى هذه الظاهرة العامة، لكن من زاوية نظر المؤرخ المشغول بإحداثيات الزمن. والذي طالما وجد جانبا من ضالته في المادّة الجنائزيّة. ونخص بالذكر النقائش والمعمار.

وقد يترجم المعمار الجنائزي عن المعتقد الديني والتصور الجماعي للحياة ما بعد الموت. لكن شكل المدفن ووضعه القانوني هو الذي يمكّن الباحث من تبيان طبيعة العلاقة بين عالم الأحياء وعالم الأموات من جهة[2]، وشكل التمايز والتراتبية داخل البنية الاجتماعيّة من جهة أخرى. وما نلاحظه عبر حقب التاريخ المتعاقبة، هو أن اتخاذ المدافن العائليّة والخاصّة، ذات المعمار المتين والنفيس، كان تقليدا شائعا في أوساط النخب الاجتماعيّة والسياسيّة. وفي تقدير بعض الباحثين التونسيين الذين اشتغلوا على المدونات الجنائزية من نقائش ومعمار- ومنهم أحمد السعداوي[3]، لم تخلو البلاد التونسيّة من المدافن الخاصة بالنخب السياسيّة والدينيّة عبر مختلف الحقب التاريخيّة. لكنّ انتشارها على نطاق واسع لم يتم إلا بعد دخول الأتراك، ومنذ القرن السابع عشر على وجه الخصوص. فهل يكشف هذا التقليد عن سلوك جنائزي نخبوي شاع خلال الفترة الحديثة وله خصوصياته ؟ وكيف تكون هذه الممارسة تعبيرا عن نزعة تمايز لها رهاناتها؟

1- المدافن الخاصة في تونس قبل العهد العثماني: تقليد ملوكي شائع

أثبتت البحوث الأثرية التي أنجزها سليمان مصطفى زبيس[4]وبعض أعمال محمد الباجي بن مامي[5] أن أقدم المدافن الخاصّة في مدينة تونس وفي البلاد التونسيّة عموما تعود إلى بدايات القرن الثاني عشر ميلادي. حيث قام ملوك بني خراسان، الذين أقاموا إمارة مستقلّة بمدينة تونس بعد انهيار الحكم الصنهاجي بإفريقيّة، باقتطاع جانب من المقبرة الواقعة غربي السور لبناء جامع ومدفن خاص. ويعرف هذا الجامع اليوم باسم "جامع القصر". أما التسمية الشائعة لهذا المدفن الخاص فهي "سيدي بوخريصان". كما يبدو أن مقبرة القرجاني، التي ظهرت في بداية العهد الموحدي الذي يوافق النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد، كانت في الأصل مدفنا خاصا بالمشايخ الهنتاتيين. وفضلا عن ذلك، فإن التيجاني- الذي عاش خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر- يتحدث في رحلته عن القيروان ويذكر مقبرة القرشيين التي تعود إلى بداية الفتح الإسلامي. لكنها أصبحت في عصره مدفنا خاصا لمجموعة من العائلات القيروانيّة الوجيهة والشريفة. كما يشير الوزير السرّاج في كتاب "الحلل" إلى أن سلاطين بني حفص اتخذوا من زاوية الولي محرز بن خلف مدفنا خاصا لهم. وهو يقدّم وصفا مطوّلا لهذا المدفن الملوكي، الذي أصبح يعرف في عهده بـ "تربة الملوك". ويذكر أن السلاطين الحفصيين جلبوا كل التراب الذي يحوي رفات الموتي بالمكان من بلاد الحجاز. أما المعطيات الأثريّة فتفيد أن الأجيال الأخيرة من السلاطين الحفصيين كانوا يدفنون في زاوية سيدي قاسم الزليجي. وأن بعض الأفراد من بني حفص، وخاصّة من النساء والموالي الأعلاج، كانوا يدفنون في مقبرة الزلاج. ومع ذلك، فان أغلب

المؤشّرات تجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن المدافن الخاصة أصبحت عادة شائعة في أوساط السلالات الحاكمة في تونس وفي بقيّة البلدان المغاربية منذ الفترة التي تلت انهيار "الامبراطورية الموحدية". حيث يعرّج الوزّان الفاسي في كتابة "وصف إفريقيا"، وفي معرض حديثه عن مدينة فاس، على وصف الروضة المرينية[6]. ونعلم وفق ما يذكره ابن أبي زرع، صاحب كتاب "روض القرطاس"، أن القول باكتشاف قبر إدريس الأول، مؤسس الشرف في المغرب، قد تم خلال بداية العهد المريني[7]. وليس من الغريب- في تقديرنا- ان يُتخذ ضريحه مدفنا خاصا للسلاطين والأشراف منذ ذلك التاريخ وخلال الحقب الموالية. وعلى هذا الأساس، يمكن القول أنه عند استقرار الأتراك العثمانيين في إفريقيّة، لم تكن عادة اتخاذ المدافن الخاصة تقليدا منعدما تماما في أوساط النخب في تونس وفي بقيّة البلدان المغاربيّة. وما يشير إليه شارل مونشيكور، في معرض دارسته عن الإمارة الشابيّة بالقيروان خلال القرن السادس عشر، من وجود لمدفن خاص لبعض شيوخ الشابيّة داخل زاوية جدهم ومؤسس إمارتهم، عرفة الشابي، هو على الأرجح استمرار لتقليد محلي مغاربي، أكثر منه تعبيرا عن تأثير عثماني وافد. وعليه، يصبح من الوجيه التساؤل عن خصوصيات هذه الممارسة خلال العهود السابقة للوجود العثماني؟.

إن شح المعطيات النقائشية والأثرية والأدبية لا تسمح بتقديم إجابة مستفيضة عن هذا التساؤل. لكن أغلب المؤشّرات تفيد أن هذا التقليد الجنائزي السلطاني، الحريص على مجاورة أقطاب التصوف في حياة ما بعد الموت، يترجم عن الواقع السياسي والديني المغاربي خلال القرون التي تلت سقوط الحكم الموحدي. وهذا الواقع يمكن تلخيصه في ظاهرتين: الأولي دينيّة وتتمثل في انتشار الثقافة الصوفيّة داخل المجتمع بأسره. أما الظاهرة الثانية فهي سياسيّة ونعني بذلك التحالف القائم بين السلطة والإسلام الطرقي. وبذلك، فإن اختيار السلاطين لأضرحة الأولياء لتكون مدفنا لهم، لا يمليه مجرد الرغبة الروحيّة في التبرّك بالأولياء فقط. بل إن هذا السلوك تمليه ضرورة سياسيّة تقتضى تعزيز شرعيّة الحاكم عن طريق الانغماس في خدمة أرباب التصوّف وإبداء مظاهر الإجلال لمقاماتهم وأضرحتهم. وأهم ما نلاحظه، وفق بعض المعطيات النقائشيّة أنه قلما يوجد اختلاط بين النساء والرجال في "أولى منازل الآخرة". فالنساء والأطفال والعبيد كانوا يدفنون في فضاءات الدفن العامّة. لذلك، يجدر الحديث خلال العهد الحفصي عن مدافن خاصة. وليس عن مدافن عائليّة.

ومن ناحية أخرى، أدّى ظهور هذه المدافن الملوكيّة حول ابرز المقامات والأضرحة، منذ القرن الثاني عشر على الأقل، إلى تثبيت بقاء بعض الجيوب المقبريّة داخل الفضاء الحضري المركزي. والمثال الأبرز على ذلك هي المقبرة المحاذية للقصبة وتلك المحيطة بضريح الولي محرز بن خلف. ويذكرّنا هذا بما يشير إليه فيليب أرياس(Ph. ARIES) بخصوص الغرب المسيحي خلال نفس الفترة تقريبا. وذلك عند حديثة عن ظاهرة بروز مدافن خاصة بالنخب الكنسية حول الأديرة والمعابد التي

تتوسط المدن. حيث جرت العادة خلال العصور القديمة، في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانيّة، أنه لا يتم تخصيص فضاءات للدفن إلا في أطراف المدينة[8]. وكما حصل في الغرب المسيحي، شهدت القرون الوسطى عودة الأموات إلى وسط المدينة الذي أخرجوا منه خلال العصور السابقة. وفي مدينة تونس، سجلنا هذه الظاهرة كما أسلفنا منذ القرن الثاني عشر. لكنها ستتعمّق أكثر فأكثر مع بداية الحكم العثماني.

2- من الضريح المدفن إلى التربة العائلية، ومن العادة السلطانية إلى التقليد النخبوي

بات من المعروف أن النظام السياسي الذي ركزه سنان باشا في تونس سنة 1574، جعل من البلاد إيالة عثمانيّة. والحاكم الذي يحكمها بموجب تفويض يمنحه الباب العالي، يحمل لقب "الباشا". ويمارس مهامه بمعيّة رئيس الحامية العسكرية، وهو آغة الديوان[9]. ونعلم كذلك أنه إلى حدود سنة 1591، تاريخ سيطرة صنف البلكباشية على مقاليد السلطة وابتداء عصر الدايات، كان أغلب من تولى التفويض المذكور ومساعديه يغادرون البلاد بعد انتهاء المدة أو إزاحتهم عن مهامهم[10]. وفي ما يخصّ الاستثناءات القليلة، ونعني بذلك من مات في تونس، لا تسعفنا المصادر بمعلومات عن مدافنهم.

ومع حلول القرن السابع عشر، بدأ صمت المصادر يتلاشى شيئا فشيئا. وتبيّن لنا أن التقليد الحفصي القديم، المتمثل في اتخاذ زاوية قاسم الزليجي مدفنا خاصا، قد تواصل بين صفوف الحكام الجدد إلى حدود العقد الأول من القرن على الأقل. حيث يذكر الوزير السرّاج في كتاب "الحلل" أن رمضان باي، الذي مات سنة 1613، دفن في هذه الزاوية[11]. ولم تكن زاوية قاسم الزليجي هي المدفن الوحيد لرؤوس الأنكشاريّة الذين يحكمون البلاد. وحسب بعض الشهادات الشفويّة التي أمدنا بها بعض العاملين في مصالح الوزارة الأولي ووزارة الدفاع وغيرها من الأبنية المحيطة بالقصبة، والتي تفيد باستمرار وجود بعض القبور الرخامية داخل بعض المكاتب التابعة للمصالح المذكورة، ليس من المستبعد أن يكون بعض رؤوس الإنكشارية قد دفنوا وسط دورهم الواقعة داخل أسوار القصبة. وإذا تيسّرت لاحقا لأحد الباحثين سبل دراسة هذه القبور، وتبين أن تاريخها متأخر عن نهاية القرن السادس عشر أو عن القرن السابع عشر، فلا يعني ذلك في تقديرنا غياب هذا السلوك لدى الأجيال الأولى من العسكر الإنكشاري. وإذا تمادينا في تقديم الفرضيّات، نستطيع ان نقول بإمكانيّة وجود مقام للطريقة البكداشيّة داخل القصبة، وأنه وقع الاختيار عليه ليكون مدفنا لبعض أعيان الجند الإنكشاري.

ومهما يكن من أمر، فلقد بات من المؤكد أن الكثير من كبار قادة الجند خلال العقود الأولي من الحكم التركي قد دفنوا في أهم الاضرحة والمقامات التونسيّة، على غرار سيدي قاسم الزليجي كما أسلفنا. لكن كذلك في زاوية سيدي بن عروس. ولعل أهم مدفن خاص لأفراد النخبة العسكرية الحاكمة في أوائل القرن السابع عشر، هو تربة عثمان داي، الذي انفرد بالحكم منذ سنة 1594. ومات سنة 1610، ليدفن في ضريح سيدى بن عروس. وهذا المثال يستحق أن نتوقّف عنده لبرهة: فاختيار عثمان داي لمدفنه في زاوية سيدي بن عروس يذكرنا بالتقليد الحفصي القديم. ستحول ذريّته من بعده هذا

الضريح المدفن إلى تربة عائليّة. وهو ما يبيّنه أحمد السعداوي في كتابه الذي خصصه للترب ومدافن الدايات والبايات في تونس. ويضيف أن إحدى حفيدات عثمان داي، والمرجح أنها الأميرة عزيزة عثمانة، قامت في بداية القرن الثامن عشر بتخصيص جانب هام من عائدات أوقاف بجهة الساحل، لفائدة هذه التربة[12]. ونستفيد من ذلك، أنه بالتزامن مع استقرار العناصر التركية الحاكمة، و رسوخها في الوسط التونسي ابتداء من العقد الأول من القرن السابع عشر، شهدت العادات الجنائزية النخبوية ظهور الترب العائلية على الشاكلة التي تذكّرنا بالتقليد الشائع في مركز الإمبراطوريّة في استانبول وسائر ولايات المشرق.

الثابت في الأمر، أنه منذ العقد الثالث من القرن السابع عشر، بدأت عادة بناء الترب العائلية تشهد انتشارا كبيرا في بعض أوساط النخب الحاكمة ذات الأصول التركيّة أو العثمانيّة. فيوسف داي الذي خلف عثمان داي في الحكم من 1610 إلى 1637، وهو الذي عرف بإنشاءاته المعمارية العديدة- وخاصة جامعه الشهير الذي يحمل اسمه، وهو أول جامع بني على الطراز العثماني في تونس سنة 1616- قام بتخصيص جناح من الجامع المذكور ليكون مدفنا خاصا له. وقام ابنه أحمد من بعده بإتمام البناء على الشاكلة التي نعرفها اليوم لتكون تربة للعائلة. وإذا كان لهذه التربة مميزاتها من النواحي الفنيّة والمعمارية، فإنها شكلت من ناحية أخرى حالة فريدة، قطعت مع سابقاتها. فهي ليست ملحقة بأحد الأضرحة بل هي جزء من مركب ديني ضخم، يضم مدرسة وجامعا. يبدو كما لو أن نخبة ذلك الزمان ما عادوا يحرصون في المقام الأول على إنزال قبور موتاهم بجوار مصادر القداسة والبركة. وأصبحوا يسعون في المقابل لأن تكون مدافن ذويهم هي مصدر القداسة. وربما البركة كذلك.

ومهما يكن من أمر، فان ما تثبته المعطيات الأدبيّة والأثرية يفيد أن جل من تولى أمر السلطة بعد يوسف داي قد نحى منحاه. وإن بدرجات متفاوتة. فأسطا مراد داي، الذي خلف يوسف داي وحكم من سنة 1637 إلى سنة 1640، ابتنى تربته في ما يعرف اليوم بسوق السكاجين[13]. ورغم انحصار سلطة الدايات وتراجع وزنهم السياسي لفائدة البايات المراديين ابتداء من اربعينات القرن السابع عشر، حافظ من تولى خطة الداي بعد هذا التاريخ على اتباع نفس التقليد. فأحمد خوجة داي الذي توفي سنة 1647 بنى تربته في المساحة الفاصلة بين جامع يوسف داي ومقام سيدي علي بن زياد[14]. أما الداي محمد لاز، الذي توفي سنة 1653، فان تربته تقع قبالة تربة يوسف داي[15]. كما أن الداي الحاج مصطفى لاز، الذي تولى الخطة سنة 1653، دفن عند وفاته سنة 1666 في تربته الكائنة بصحن المسجد والسبيل الذين يحملان اسمه في الركن الفاصل بين نهج دار الجلد ونهج بئر لحجار[16]. وتذكر المصادر كذلك تربة الداي شعبان خوجة الذي توفي سنة 1672. وحسب أحمد السعداوي ، فانّ هذه التربة التي أزيلت في تاريخ متأخر تقع في نهج سيدي بن عروس، في مستوى رقم 55 على وجه التحديد[17]. وما نلاحظه، هو أنه بالتزامن مع تراجع سلطة الدايات، لم تعد منشآتهم الجنائزية

تحظى بوزن كبير في النسيج الحضري. فالداي مامي الجمل على سبيل المثال، الذي أزيح عن خطته وقتل بالكاف سنة 1679، لم يدفن في التربة التي بناها بنواحي باب الجديد[18]. وتكاد تكون تربة بقطاش خوجة داي، الذي توفي سنة 1688، هي الاستثناء الوحيد. وهي تلك التي تقع في مدخل مستشفى عزيزة عثمانة[19].

وتظل أهم منشأتين جنائزيتين تم بنائهما خلال القرن السابع عشر، هما تربة يوسف داي التي سبق ذكرها. وكذلك تربة البايات المراديين الكائنة بصحن جامع حمّودة باشا المرادي. وتفيد المصادر الأدبية والأثريّة أن حمودة باشا هو الذي شرع في بناء الجامع وأتربة الملحقة به. لكنّه توفي قبل إتمام الأشغال. فدفن في زاوية سيدي بن عروس. وأتم مراد باي الثاني البناء سنة 1672. ونقل إليه رفات أبيه حمودة باشا وجدّه مراد باي الأول، الذي توفي سنة 1632[20]، من زاوية سيدي بن عروس. وكان مراد باي الثاني هو أول من دفن بتربة العائلة عند وفاته سنة 1675[21].

وبحلول القرن الثامن عشر وانتقال السلطة إلى العائلة الحسينية سنة 1705، شهدت الخريطة الجنائزية في تونس ظهور ثلاث ترب ملوكية على الأقل. تربة حسين بن علي التركي التي بناها سنة 1708 قرب جامعه الكائن في نهج الصباغين[22]. كما قام علي باشا، الذي أنفرد بالحكم بعد انتهاء الحرب الباشية الحسينيّة سنة 1740، ببناء تربته الكائنة بسوق القشاشين قرب جامع الزيتونة. وجعل منها مركبا دينيّا وتعليميا، يعرف اليوم باسم مدرسة السليمانية. ولا تكشف المصادر بوضوح عن مكان دفنه بعد إزاحته عن السلطة وقتله سنة 1756. لكنها تشير إلى دفن عدد من ذريته و أخلافه في هذه التربة[23]. ويذهب أحمد السعداوي إلى أن علي باشا كان له في البداية نيّة إنشاء تربتين: واحدة للرجال- وهي التي أشرنا إليها- وأخرى للنساء في مقبرة الزلاج[24]. لكن علي باشا فضّل في النهاية الحفاظ على التقليد العثماني عن العودة إلى العادة الحفصية. وبعد عودة أبناء حسين بن علي الى السلطة سنة 1756، قام علي باي، الذي تولى الحكم سنة 1759 ببناء تربة العائلة الحسينية. والتي نعرفها اليوم باسم تربة الباي. ووفر الاستقرار السياسي لهذه التربة الظروف لتصبح أضخم معلم جنائزيّ خاصّ في تونس منذ دخول العثمانيين[25].

وما يميّز القرن الثامن عشر من ناحية أخرى، هو انتشار تقليد إنشاء الترب العائليّة في الفئات النخبويّة الوسطى. ونعني بذلك أعيان المخزن وبيوت العلم على وجه الخصوص. حيث عمدت عائلة الجلولي على سبيل المثال - بعد انتقالها من صفاقس إلى تونس خلال العقد الثالث من القرن- إلى شراء دار عائلة الرصّاع – المشهورة بالعلم- وحولتها إلى تربة خاصة بعائلة الجلولي[26]. ومثلها فعلت عائلة بن عيّاد بعد انتقالها من جزيرة جربة إلى الحاضرة. وتفيد بعض المؤشرات أن آل بن عيّاد أنشئوا تربتهم في ربض باب جديد. ونرجّح أن تكون في الفضاء المحيط بزاوية سيدي بومدين. أما عائلة بن عاشور، فأنهم اتخذوا من زاوية سيدي علي الزواوي مقرّا لتربتهم الخاصة. ولا شك أن المصادر المتاحة لا تكشف عن كل من مارس هذا التقليد

من العناصر النخبويّة بمختلف أصنافهم. ورغم تركّز هذا التقليد في مدينة تونس- على الأقل حسب ما تكشفه المصادر-، فان ذلك لا يعني غيابه في بقيّة مدن الإيالة، خاصة تلك التي تضم سكانا من إصول تركيّة أو حنفيّة كما أصبح شائعا في الوثائق المعاصرة. ومن الأمثلة البارزة، نذكر غار الملح، حيث عاين كل من أحمد السعداوي وناجي جلول وجود تربة عائلية غير مسقوفة[27]. كما كشف الباحثان عن وجود تربة خاصة بعائلة بن رمضان في المهديّة[28]. ويذكر أحمد السعداوي، نقلا عن سارج سانتيلي، وجود تربة خاصة بعائلة حمزة في المهديّة[29]. ويرشدنا كذلك، عن طريق الدفتر رقـ 144م بالأرشيف الوطني (الورقة 44)، إلى وجود قبر علي التركي، والد حسين بن على، بجامع سيدي على المجذوب بالكاف[30]. ونضيف إلى ما تقدّم أن هذا التقليد شمل كذلك أعيان الطائفة اليهوديّة بتونس. حيث ذكر لي السيد مارك فلوس ومن معه في جمعيّة أصدقاء مقبرة بورجل، أن المقبرة اليهودية القديمة والتي كانت تحتل الموقع الحالي لحديقة ثامر، كانت تحوي عديد الأضرحة للشخصيّات المعتبرة ومن بينهم الحاخام إيلي بورجل. وما تجدر الإشارة إليه، هو أن التباين الحاصل في أوساط الغالبية المسلمة من سكان تونس بين المحليين من جهة والعناصر الحنفيّة من جهة أخرى، له ما يقابله لدى الطائفة اليهوديّة بين فئة اليهود التوانسة وفئة اليهود القرانة. ونلمس انعكاسات هذا التباين في الفضاء الجنائزي. إذ تم وضع جدار للفصل بين الفئتين في مقبرة بورجل التي ظهرت خلال العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر[31]. وما يلاحظه الزائر لمقبرة بورجل، المخصصة لدفن اليهود، هو ان القسم المخصص لدفن اليهود التوانسة يتسم في الغالب بالبساطة في المعمار. ولا يخضع فيه ترتيب القبور إلى نظام واضح. وعلى العكس من ذلك، فان الجزء الآخر المخصص لليهود القرانة تتميز قبوره بالضخامة والمعلمية (la monumentalité) في كثير من الأحيان. وهو مقسم إلى مربّعات تحمل أسماء بعض العائلات النافذة مثل لامبروزوLambroso وكوستا Costa وفالنزي Valensi. وسواء تعلق الأمر بالمسلمين أو باليهود فان انتشار عادة انشاء الترب العائلية في الأوساط النخبوية، بمختلف أصنافها وانتماءاتها، لا بد أن تكون له رهانات لا يمكن اختزالها في بعد واحد.

3- الممارسة الجنائزية النخبويّة والفعل المجتمعي

لا شك أن انتشار الترب في تونس على نطاق واسع منذ القرن السابع عشر، كانت له العديد من النتائج والانعكاسات التي لا يمكن حصرها واختزالها في الجوانب الفنية والمعماريّة. وإذا سلمنا أن لهذا التقليد ارتباط بنزعة التميّز وإظهار المكانة لدى العناصر النخبويّة، صار من الممكن حينئذ قراءة هذا السلوك على أساس أنه تعبير عن إرادة في إثبات الوجود لدى طائفة وافدة على البلاد وغير متجانسة في مكوّناتها. ومن شأن هذه الاستراتيجية أن تفرز مع مرور الوقت – ولدى الأجيال المتأخرة على وجه الخصوص - إحساسا بالتجذّر في المجال مع الاحتفاظ بأفضلية الأصل الذي يربطهم رأسا بـ "الجدود الفاتحين". وليس أفضل من قبور الأجداد لإثبات أقدميّة الانتماء. وبذلك

يصح أن يعتبر تقليد إنشاء الترب "فعلا في المجتمع" Action en Société بالمفهوم الذي يتبناه ماكس فيبر Max WEBER[32]. فالتعايش في مجموعة، وما يعنيه ذلك من حرب وسياسة وصراع من أجل الوجود والسيطرة على مقدّرات المجال، غالبا ما يؤدى إلى شعور جماعي بوجود رابطة تضم الشتات. ويفضي هذا الشعور في مرحلة لاحقة إلى انغلاق المجموعة وممارسة منطق الإقصاء والإدماج وفق اعتبارات دينيّة وجغرافيّة وعرقيّة. ومن شأن منظومة القيم والعادات وما تحيل إليه من معتقدات أن تؤمّن حظوظ تحقق هذا المسار.

لقد وفّر لنا هذا البحث حول جانب من التقاليد الجنائزية النخبوية فرصة ثمينة لاختبار تاريخية المسار المشار إليه. والذي أفرز - في تقديرنا - مشروعا سياسيا طائفيّا أو جمعويا projet politique de communalisation خلال القرن السابع عشر. ذلك أن الترب العائليّة الخاصة بالأتراك أو بالعائلات ذات الأصول الأندلسية أو الأوروبيّة، مسلمة كانت أم يهوديّة، وكذلك تلك التي وفدت على الحاضرة من الدواخل، تستجيب لنزعة التميز عن الآخرين. وهو ما تشير إليه صراحة نقيشة في تربة يوسف داي ورد فيها ما يلي:

هذا ضريح مفرد في جامع جمع المحاسن مثله لا يوصف

ومع تعاقب الأجيال، تصبح التربة العائلية قرينة تؤيّد ادّعاءات التجذّر في المجال مع أفضلية الأصل في آن واحد. وهو ما تصرح به على سبيل المثال النقيشة القبرية الخاصة بالأمير أحمد بن محمد باي المرادي الذي توفي سنة 1688، ودفن في التربة المرادية. حيث ورد ما يلي:

أحمد به، نجل الهمام محمد سلالة مجد من خيار جدود

وفضلا عن إذكاء الشعور بالانتماء إلى مجموعة متميّزة، تفسح التربة مجالات واسعة لصياغة الذاكرات العائليّة وتمتين الرابطة الأسرية. وهذا العامل هو الذي يفسر وجود غرف مخصّصة لقبور النساء في أغلب الترب التي تعود إلى العهد العثماني. وقد يوجد في بعض الأحيان اختلاط بين قبور النساء وقبور الرجال داخل نفس الغرفة الجنائزيّة على غرار ما هو موجود في تربة عثمان داي أو تربة يوسف داي. وهاجس تمتين الرابطة الأسريّة، والرابطة الأبويّة على وجه الخصوص، هو الذي يفسّر في تقديرنا تفضيل دفن بعض النساء في تربة آبائهن وليس في تربة أزواجهن. وتتحول الترب، بما تزخر به من تعبيرات فنيّة وأشكال إبداعيّة مثبتة على الرخام، إلى ما يشبه المتحف الذي يؤرّخ للعائلة ويحفظ أمجادها. ففي التربة المرادية، كتب ابن أبي دينار فصول تاريخه على رخام القبريات قبل تحبيره على صفحات المؤنس. حيث تكشف النقيشة القبرية لعلى باي على سبيل المثال، عن أجواء التوتر التي أحاطت بموته سنة 1686:

مولاي عفوك في البريّة جار نج عليّا من عذاب النار

ونفس الملاحظة تنطبق على القبرية الخاصة بمحمد الحفصي الذي مات في نفس السنة وفي أجواء متوترّة للغاية بفعل الحرب بين الأخوين محمد وعلي. وتقول هذه القبرية:

مولاي يا من بالمكارم يوصف وبعفوه عنا نفوز ونتحف

اغفر لصاحب ذا الضريح محمد الباشة الحفصي بذاك يعرف

وحتى الاستثناء الدرامي الذي يمثله رمضان باي المرادي وما تعرض له من إقصاء عن التربة العائليّة وإعدام لجسده حيا وميتا من قبل خصمه وابن أخيه مراد باي الثالث، لا يمكن إلا ان يؤّكد ولو بأسلوب سلبي- هذا **المنطق** الذي أشرنا إليه.

ويمكن القول في نهاية التحليل، أن التربة - باعتبارها مكان دفن متميّز- هي أشبه ما تكون بخطاب يتوجّه به الأحياء إلى الأحياء. ولا يعني الأموات في شيء. وهذا الخطاب توجهه النخبة إلى النخبة أولا، ومن خلال النخبة إلى سائر العامة. ومضمون هذا الخطاب - اذا شئنا الاختزال الذي لا يخلو من التعسّف- هو التعبير عن قدم الانتماء. لكن مع هامش جمالي يسمح بإبراز خصوصيات تهم بعض الأفراد أو بعض العائلات. على غرار ما نقش على اللوحة الرخامية الموضوعة على قبر السيدة مايسة منداس المدفونة في مربع عائلة كوستا بالمقبرة اليهوديّة بورجل. فالنص الجنائزي المنقوش على قبريّة هذه السيدة - التي ماتت في سن مبكّرة – يصدر فيه الخطاب عن ضمير المتحدث "أنا"، وتتوجه بالخطاب إلى الزائر لتقول له ما مضمونه أن الموت غدرت بها في ازهي العمر:

موتـي جات معجّلــة طارت [روحي] مــع الطيــرات[33]

الطبيب ما فاق بمرضي في يومين الموت جات

يعالج في مرض عصب ويقول ما منه مخوفات

صادفني تورنو بونطاده[34] سكنتنـــي الروضـــات

يبكــي زوجي بحـــرقة في جسمه شعلوا لهيبات

ذبحت الموت مايصة منداس نسل الفخــرات

يوم 21 هادرعخ حضــرولي لاجــلات

الخاتمة

لقد تبين لنا من خلال هذا البحث، أن إنشاء المدافن الخاصة والترب العائلية لا يمكن اعتباره سلوكا مجانيا أو تقليدا بلا معنى. فهذا السلوك يحيلنا - قبل كل شيء - إلى

ممارسة متطورة في الزمن. وهو يشكّل كذلك فعلا مجتمعيّا له غايات، ويهدف إلى بلورة مشاريع. فضلا عن ذلك فهو خطاب نخبوي يستوعب العمل الإبداعي وله القدرة على خلق القيمة الجماليّة. وما كان لهذا السلوك أن يكون كذلك لو لم يكن له صفتين أساسيتين متلازمتين: أن يكون مختلفا مع ما سبقه لكن بدرجة لا تجعل منه نشازا غير مقبول، ثم أن يكون متشابها، لكن ليس التشابه الذي يفقده القدرة على البروز ولفت الانتباه.

قائمة المراجع

[1] « L'homme est un animal qui fait des choses raisonnables à partir de principes déraisonnables et qui part de principes sensés pour accomplir des choses absurdes. Et cependant ces principes absurdes, cette conduite déraisonnable, sont probablement le point de départ de grandes institutions ». Mauss (M.), 1926, *Manuel d'ethnographie*, Paris p. 61

2 هذا هو الجانب الذي تركّز عليه أغلب الدراسات الانتروبولوجيّة. أنظر:
LONGLOIS (O.), 2003, [avec la collaboration de Lola BONNABEL] « Traditions funéraires et religions au Diamaré : apports historiques d'une approche ethnoarchéologique (Nord- Cameroun) », Journal des Africanistes, Vol. 73, n° 2,p p. 27 – 76

3 أنظر :
SAADAOUI (A.), 2010, Tunis, architecture et Art funéraire. Sépultures des deys et des Beys de Tunis à l'époque Ottomane. Centre de Publications universitaires. Manouba

4 أنظر :
ZBISS (S-M.), 1951, « Note sur les cimetières musulmans de Tunis ; essai de toponomastique », in Actes du 70è Congrès de l'AFAS, Fasc. III, Tunis Mai 1951

5 بن مامي (م. الباجي)، "نظرة حول الترب وأماكن الدفن الأخرى بمدينة تونس"، المجلة التاريخية المغاربية، ع. 33-34، 1984، ص. 9-38.

6 أنظر:
Léon l'Africain, 1908, Description de l'Afrique ; Tierce partie du Monde. Nouvelle édition annotée par Ch. Schefer. Paris. Ernest Le Roux. Volume II, p. 172

7 أنظر :
Ibn Abi Zar'a, Roudh EL-Kartas. Histoire des Souverains du Maghreb (Espagne et Maroc) et Annales de la ville de Fèz (trad. par A. Beaumier) p. 15

8 أنظر:
ARIES (Ph.), Essais sur l'histoire de la mort en Occident, du Moyen âge à nos jours. Paris, Éditions du Seuil – 1975. p. 24-25

9 BACHROUCH (T.), Formation sociale barbaresque,

10 Saadaoui (A.), Op.Cit., p. 10

11 الوزير السرّاج (أبو عبد الله، محمد)، الحلل السندسيّة في الأخبار التونسية، بيروت. دار الغرب الإسلامي 1984. ج 2. ص 355-356 (سيذكر هذا المصدر في الاحالات الاحقة باختزال "الحلل").

12 Saadaoui (A.), Op. Cit., p. 14
13 Saadaoui (A.), Op.Cit., p. 53
14 Ibid, p. 71
15 Ibid, p. 76
16 Ibid., p. 79
17 Ibid., p. 86
18 Ibid., p. 92
19 Ibid., p. 94

20 الحلل. ج 2. ص 366 و 432
21 نفس المصدر. ص 452
22 نفس المصدر. ج 3. ص 133

23 Saadaoui (A.), Op. Cit., p. 03
24 Ibid., p. 135

25 أنظر:

- Ben Achour (M-A.), «Tourbet El-Bey, la sépulture des Beys et de la famille Husseinite à Tunis », IBLA n° 155, 1er Sem 1985, pp. 45-84.

26 الأرشيف الخاص للمرحوم أحمد الجلولي

27 Saadaoui (A.), Op. Cit., p. 02, note 01
28 Ibidem
29 Ibidem
30 Ibidem

31 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة D، الحافظة 225، الملف 9/2. نسخ من أوامر تنظيم شؤون اليهود بالحاضرة قبل الحماية ومراسلات وتقارير تتعلق بتقسيم المقبرة الجديدة (بورجل) بين اليهود البرتغاليين واليهود النونسيين سنة 1890.

32 أنظر :

Winter (E.), Max Weber et les relations éthniques ; du refus du biologisme racial à l'Etat multinational, [avec Préface de Philippe Fritch, et traduction par Vanessa Welkining]. Presse Université Laval, 2004, p. 117-118

33 "الطيرات" تعنى العصافير في العامية التونسيّة

34 "تورنو ينطادة"، المقصود بذلك هو تعرض السيّدة المعنيّة إلى نزلة برد.